الاستخدام الشعري للغة بين التطفل والإنجاز
قصيدة فتح الأحساء لابن عثيمين أنموذجا

مصطفى محمد تقي الله بن مايابا

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز
جدة، المملكة العربية السعودية

الملخص

يسلط البحث الضوء على موضوع اللغة الشعرية ليرد على أوستن في وصفه للاستخدام الشعري للغة بالاستخدام التطفلي parasitic use ؛ لأنه يحاكي الاستخدام الاعتيادي normal use ولكنه ليس جادا ولا ملزما للمتكلم، ويسعى البحث لإثبات أن بعض النماذج الشعرية العربية تشتمل على لغة جادة وملزمة للمتحدث، وليست مجرد لغة تطفلية.

وقد اختيرت بائية ابن عثيمين في وصف فتح الملك عبد العزيز للأحساء لتكون أنموذجا يثبت الباحث من خلال تحليله في ضوء نظرية الفيلسوف الإنجليزي جون أوستن حول مستويات القول أن بعض النصوص الشعرية قد تفسر باعتبارها بنية إنجازية مستقلة، كما قد تتضمن جملا ذات دلالة إنجازية تنقل النص أو بعض عباراته من دائرة الكلام التقريري الذي يحتمل الصدق والكذب ليصبح فعلا أدائيا يلزم المتكلم بأداء فعل محدد.

وجاءت آلية العمل في البحث متبعة المنهج التكاملي الذي يوظف أكثر من منهج علمي، ليخلص البحث إلى النتيجة المتمثلة في أن قصيدة فتح الأحساء لابن عثيمين تؤدي دورا إنجازيا يتمثل في أداء البيعة للملك عبد العزيز، وليست مجرد كلام أدبي غير ملزم كما يعتقد أوستن عن لغة الشعر.

ويوصي البحث بالاهتمام بدراسة اللغة الشعرية في ضوء نظريات البلاغة، واللغة، والاتصال الحديثة لتتكشف أبعاد جديدة تتعلق بعلاقة الشاعر بالنص الذي يكتبه، وتكون هذه الأبعاد مادة للدراسة في الأطروحات الجامعية، والمقالات العلمية، والدراسات المتخصصة.

الكلمات المفتاحية: أفعال الكلام، قصيدة فتح عمورية، الملك عبدالعزيز.

المقدمة

تعددت الآراء حول الشعر ولغته بين فريق يهتم بطبيعة الأدب فيصنف الشعر باعتباره فنا خالصا ذا لغة فنية تختلف في دلالتها عن الأشكال اللغوية الأخرى، ويرى أتباع هذا الاتجاه أن الشاعر ليس مسؤولا عما يقول؛ لأن لغة الشعر لا تخضع في رأيهم لمعايير اللغة الاعتيادية، ويهتم الفريق المقابل بوظيفة الأدب، فيعتبر الشعر مثل النثر في لغته، وفي التزام الكاتب بمضمون ما يقول في نصه، وتكمن أهمية هذا الاختلاف حول طبيعة اللغة الشعرية في أنه يحدد طبيعة العلاقة بين الشاعر ونصه بعد لحظة إلقاء القصيدة أو نشرها، كما يحدد طبيعة المسؤولية التي يتحملها الشاعر تجاه نصه، وقد ذهب أوستن في الاتجاه الأول، واعتبر أن لغة الشعر لغة غير جادة دائما، ووصف الاستخدام الشعري للغة بأنه تطفلي parasitic use لأنه يحاكي الاستخدام الاعتيادي normal use، ولكنه ليس جادا ولا ملزما للمتكلم.

وقد جاءت هذه الدراسة لتثبت من خلال التطبيق أنه يصعب وصف الاستخدام الشعري للغة بأنه استخدام تطفلي دائما؛ لأننا نجد في كثير من قصائد المدح القديمة التي كانت تُلقى في البلاط أن القصيدة تقوم بدور الكلام الإنجازي الذي يلزم المتكلم بفعل محدد مثلها مثل فعل الالتزام بالولاء السياسي بعد النطق بالبيعة الشرعية؛ ولكن هذا البعد الإنجازي في تلك القصائد يكون في الغالب خفيا، ويتطلب تحليلا يستحضر السياق الذي ألقيت فيه تلك القصائد، وقد اختيرت قصيدة ابن عثيمين لتكون أنموذجا يثبت البحث من خلال تحليله أن الشاعر أصبح ملزما بالبيعة للملك بعد إلقاء هذه القصيدة، فقصيدته تقوم بدور البيعة للممدوح، وكأن الشاعر يقول للملك من خلال القصيدة: "أبايعك خليفة للمسلمين".

وعلى الرغم من تداول بائية ابن عثيمين في فتح الأحساء في أكثر الأبحاث والمؤلفات التي تحدثت عن الأدب السعودي بشكل عام، وأدب الطليعة الأولى من الأدباء السعوديين على وجه الخصوص، إلا أن أيا من هذه الأبحاث لم تتناول القصيدة بتحليل منهجي في ضوء نظرية أدبية أو بلاغية حديثة. وعلى الرغم من تداول نظرية أوستن حول أفعال الكلام في أوساط اللغويين والنقاد العرب المحدثين، إلا أن نزرا يسيرا من أولئك النقاد قد استفاد من هذه النظرية في تحليل النص الشعري العربي، ولم يجد الباحث أي دراسة حاولت تطبيق

نظرية أوستن على نموذج من الأدب السعودي[1].

وتسعى الدراسة للوصول إلى هدفها متبعة المنهج التكاملي الذي يوظف أكثر من منهج علمي، فهي دراسة تطبيقية تحليلية، تقوم على تحليل بائية الشاعر ابن عثيمين بوصفها أنموذجا تطبيقيا يثبت الباحث من خلال تحليله أن الجمل والتعبيرات المستخدمة في النص الشعري قد تكون ذات بعد إلزامي، وقد يستخدمها المتكلم لإنجاز فعل محدد.

وقبل البدء في تحليل قصيدة ابن عثيمين في ضوء آراء الفيلسوف أوستن حول أنواع القول، يتضمن البحث تمهيدا يشتمل على شرح موجز لنظرية أوستن حول "أفعال الكلام" وطريقة تطبيقها على النص الشعري، قبل الانتقال إلى السياق التاريخي لبائيتي أبي تمام وابن عثيمين، ويتحول الحديث بعد التمهيد إلى تحليل مفصل لبائية ابن عثيمين، ويُختتم البحث بأهم النتائج المستخلصة من تحليل القصيدة.

التمهيد

يرى أوستن أن استخدامنا للغة ينقسم إلى قسمين: أولا، استخدام اعتيادي، وهو يتعلق باستخدام اللغة في حياتنا اليومية، من مثل استخدامها في المنزل، والعمل ...إلخ، وثانيا، استخدام أدبي، وذلك عندما نستخدم اللغة في الفنون الأدبية من مثل الشعر، والرواية، والمسرحية ...إلخ، وقد أطلق أوستن على هذا النوع من الاستخدام مسمى "الاستخدام التطفلي"؛ لأنه يتطفل على الاستخدام الاعتيادي، فيستخدم ذات المفردات، والجمل، التي نستخدمها في حياتنا اليومية؛ ولكنه ليس جادا ولا ملزما للمتكلم.

ويرى أوستن أن اللغة في الاستخدام الاعتيادي ليست مجرد جمل إخبارية تحتمل الصدق والكذب، وإنما تشمل أيضا نشاطا اجتماعيا يختلف عن الطابع الإخباري للغة، وقد برهن أوستن على أن اللغة التي نستخدمها في الكلام اليومي لا تنحصر في الأقوال التقريرية التي لا تتضمن أي التزام من المتكلم، وإنما هناك مستويان من الأقوال في الاستخدام الاعتيادي: المستوى التقريري constative locution، والمستوى الإنجازي performative locution، ويدخل في المستوى التقريري للقول تلك الجمل التي تحتمل الصدق والكذب، والجمل الطلبية، وكل كلام لا يفيد التزاما من القائل، بينما يشمل القسم الآخر تلك الأقوال التي يقترن لفظها بإنجاز فعل محدد كبيع، أو طلاق، أو زواج، أو اعتناق دين[2]، وقد وضع أوستن ستة شروط لتَحقق الأقوال الإنجازية felicity conditions وهي:

1. أن يتوفر الطقس العرفي المؤثر.
2. أن يتضمن الطقس تلفظا بألفاظ معينة، من قبل أشخاص محددين، فى ظروف محددة.
3. أن يكون الأشخاص المحددون وكذلك الظروف مناسبة لتنفيذ الطقس العرفي المحدد.
4. أن يتم تنفيذ الطقس العرفي على نحو صحيح.
5. أن ينفذ الطقس كاملا.
6. أن يتسم مؤدي الطقس بالصدق.

ويرى أوستن أننا في الأقوال الإنجازية نقوم بثلاثة أفعال هي:

1. فعل التلفظ tca yranoitucol: ويعني به الأصوات التى يخرجها المتكلم، والتى تمثل قولا ذا معنى.
2. فعل قوة التلفظ tca yranoitucolli: ويعني أن المتكلم حين يتلفظ بقول ما فهو ينجز معنى قصدياnoitnetni 'srekaeps أو تأثيرا مقصودا tceffe dednetni وهو ما أسماه أوستن بقوة الفعل ecrof، وقد وضع أوستن شرط توفر السياق العرفي ليتحقق هذا المعنى الإنجازي.
3. فعل أثر التلفظ tca anoitucolrep ويعنى الأثر الذي تحدثه الكلمات عند المتلقى deveihca

(1) تعد سوزان ستيتكيفيتش من أول النقاد الذين ربطوا بين النص الشعري ونظرية أفعال الكلام عند أوستن وذلك في كتابها القصيدة والسلطة في الفصل المعنون بـ"شعرية الولاء السياسي". انظر: ستيتكيفيتش، القصيدة والسلطة. وقد تبعها في تطبيق نظرية أوستن على النص الشعري العربي عدد من النقاد مثل مجد الملاح في مقالته:
AL-Mallah, M. 2003. Doing Things with Odes: a Poet's Pledge of Allegiance: Ibn Darrāj al-Qasṭalli's Hā'iyyah to al-Manṣūr and Rā'iyyah to al-Mundhir. Journal of Arabic Literature XXXIV, no. 1-2: 45-81.

ومشاري الموسى في أطروحته للدكتوراة:
Al-Musa, M. 2011. The Andalusian Panegyric Mu'āradah: Rhetorical Strategy and Speech Act Theory. PhD Thesis. Indiana University, Bloomington.

(2) تجدر الإشارة إلى أن تقسيم أوستن للكلام إلى ألفاظ تقريرية وألفاظ إنجازية يشبه إلى حد كبير تقسيم البلاغيين قديما للكلام إلى كلام إنشائي وكلام خبري، ولعل أهم ما قدمه أوستن هو التركيز على فكرة الإنجاز.

effect، فمثلا، لو قال زيد لعمرو في السوق: "بعتك هذا الشيء"، فإن هذه الجملة تشكل فعل التلفظ عند أوستن، ونية البيع عند زيد إضافة إلى عُرف البيع والشراء يمثلان فعل قوة التلفظ، وما يترتب على هذه الجملة من انتقال ملكية الشيء من زيد إلى عمرو يمثل فعل أثر التلفظ.

وقد فرق أوستن بين هذا الاستخدام الاعتيادي للغة normal use الذي قسمه إلى تقريري وإنجازي، واستخدام آخر أخرجه من دائرة بحثه، ووصفه مجازا بالتطفلي parasitic use، ومثّل له بالاستخدامات الأدبية للغة، فلو قال زيد لعمرو وهما على خشبة المسرح: "بعتك هذا الشيء"، فإنه لن يكون ملزما بشيء تجاه عمرو. يقول أوستن عن الاستخدام الإنجازي أو الأدائي، والمرتبط في نظريته بالاستخدام الاعتيادي للغة: "التعبير الأدائي - على سبيل المثال - سيكون بطريقة غريبة فارغا أو لاغيا إذا تلفظ به ممثل على خشبة المسرح، أو قيل في قصيدة ... اللغة في مثل هذه الحالات ... مستخدمة بطريقة غير جادة، بل بأساليب تتطفل على الاستخدام الاعتيادي للغة"[1]. فهو يرى أن الاستخدام الشعري للغة يشبه الاستخدام الاعتيادي في شكله؛ ولكنه يختلف عنه في تأثيره، وفي إلزام المتكلم بالألفاظ التي ينطقها.

وخلافا لرؤية أوستن حول الكلام الأدبي، ففي النص الشعري - كما سيتضح في تحليل بائية ابن عثيمين - تتعدد مستويات القول بين قول تقريري لا يحمل دلالة الالتزام، ولا يشتمل على قوة الفعل الإنجازي، وأقوال تحمل بطريقة غير مباشرة دلالة إنجازية مثل دلالة الالتزام بالولاء السياسي في بائية ابن عثيمين، وهذا التعدد في مستويات القول في الكلام الأدبي يخالف رأي أوستن في أن الكلام الأدبي لا يتضمن أي مستوى إنجازي، وعلى سبيل المثال، فإن ابن عثيمين في تأليفه لجمل البائية يختار -كما سيتضح لاحقا- من قصيدة أبي تمام ما يوافق غرضه من تأليف نصه الشعري، ويستبعد تلك العناصر الأخرى التي لا تتلاءم والطبيعة الإنجازية لقصيدته. ولإدراك البعد الإنجازي في معارضة الشاعر ابن عثيمين لقصيدة فتح عمورية؛ لابد من الإشارة إلى السياق التاريخي لكلتا القصيدتين.

جاء في تاريخ أبي الفداء: "في هذه السنة (223 هـ) خرج ملك الروم نوفيل في جمع عظيم فبلغ زبطرة، وقتل، وسبى، ومثّل بمن وقع في يده من المسلمين، ولما بلغ المعتصم ذلك أن امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم "وامعتصماه"، استعظمه، ونهض من وقته، وجمع العساكر، وسار لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من هذه السنة: أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين... حتى نزل على نهر قريب من البحر، بينه وبين طرسوس يوم، وجعل عسكره ثلاث فرق... حتى وصلوا إلى عمورية ... وكان نزوله عليها لست خلون من رمضان من هذه السنة، وأقام عليها المنجنيقات، وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد يطول شرحه، وآخره أن المسلمين خربوا في السور مواضع بالمنجنيق، وهاجموا البلد"[2].

وفي المقابل، يروي الريحاني أحداث فتح منطقة الأحساء على يد الملك عبد العزيز عام 1331 هـ: "بعد أن خرج الملك عبد العزيز قاصدا الأحساء كان قد نزل على عين من عيون الأحساء تبعد ميلا واحدا من الهفوف، وفي الساعة الثالثة ليلا في 5 جمادى الأولى من هذا العام، خرج من المعسكر بستمائة من رجاله ... ومشى أمامهم، ساروا على الأقدام وهم يحملون جذوع النخل والحبال، فلما وصلوا إلى السور، قسمهم ثلاث فرق: ... باشر أناس حزم الجذوع بالحبال، فصنعوا منها سلما تسلّقه عشرة من ذوي الشجاعة والإقدام، ثم رموا بالحبال إلى العساكر، فصعدوا ساكنين ... وكانت كل فرقة عند اكتمالها داخل السور تسير إلى الجهة المعينة لها ... فأمر إذ ذاك عبد العزيز أحد رجاله أن يصعد إلى السور، ويعدو عليه مناديا: «الملك لله ثم لابن سعود، من أراد العافية يلزم مكانه» ... ثم جاء عندما أصبح الصباح من تبقى من الأهالي - جاؤوا يبايعون مثل من تقدمهم - فأكرم محسنهم، وعفا عن مسيئهم[3].

تحليل نص ابن عثيمين:

عند تطبيق آراء أوستن على النص الشعري، فلا بد من التفريق بين نظرتين إلى النص: نظرة

(1) انظر:
Austin, J. L. (1975), How to Do Things with Words. 2 edition. Harvard University Press. cambridge, Massachusetts. 22.

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 2/33.

(3) الريحاني، تاريخ نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما، 187.

إجمالية يكون من خلالها النص كتلة واحدة ذات دلالة، ونظرة تفصيلية تتجاوز الشكل الخارجي للنص لتبحث في مفرداته، وتراكيبه، وأبياته. فالنص الأدبي في ضوء النظرة الإجمالية هو بنية مستقلة دالة، وتحديده يشبه إلى حد كبير تحديد موكاروفسكي للإطار العام للفن، باعتباره نظاما حيويا دالا يؤدي وظيفته بطريقتين: "بوصفه علامة موصلة، وبنية مستقلة، في وقت معا"[1].

وعلى الرغم من أن بائية ابن عثيمين تنتمي إلى شعر المديح والاحتفال بالنصر السياسي، فإنها تختلف من جهة طبيعة العلاقة بين المادح والممدوح عن قصيدة المدح القديمة كبائية أبي تمام، ومصدر الاختلاف هو السياق السياسي الذي تنتمي إليه قصيدة ابن عثيمين، فقد كان الملك عبد العزيز في مرحلة بناء الدولة، وأراد ابن عثيمين أن يساهم بشعره في مساعدة الملك، فبائية ابن عثيمين مثلها مثل كثير من قصائد المدح القديمة التي تؤدي فعل البيعة السياسية للممدوح؛ ولكن غرض الشاعر يتجاوز الحصول على هدية مقابل مدحه إلى المساهمة في تحقيق المشروع الديني والسياسي للملك عبد العزيز.

وفي ضوء النظرة الإجمالية للنص، فإن قصيدة ابن عثيمين لا تقف عند حد المدح والاحتفال بالحدث التاريخي، وإنما هي قصيدة إنجازية، تنجز بيعة الشاعر للملك عبد العزيز، وتتوفر في هذا الأداء أو الإنجاز الشعري بطريقة غير مباشرة كل الشروط التي وضعها أوستن للكلام كي يستحق وصف الكلام الإنجازي الذي يقترن لفظه بإنجاز فعل محدد، فإلقاء الشاعر لقصيدة المدح السياسي لخليفة أو سلطان من خلفاء وسلاطين المسلمين، والتصريح بأحقيته بالملك أو الخلافة، يعتبر مرادفا لقوله "أبايعك خليفة للمسلمين"، وهي بيعة منجزة لا يجوز خلعها، وتتأكد الصفة الإنجازية لقصيدة ابن عثيمين عندما نتجاوز النظرة الإجمالية للنص إلى البحث في أجزائه من مفردات وتراكيب.

عندما علم الشاعر ابن عثيمين[2] بدخول الملك عبدالعزيز لمنطقة الأحساء، ترك مقامه في قطر، وتوجه إلى شرق جزيرة العرب، ليمدح ملكها الجديد بقصيدته "العز والمجد"، مؤديا البيعة للملك، ومعارضا بقصيدته بائية أبي تمام في فتح عمورية على يد الخليفة العباسي المعتصم: "السيف أصدق أنباء من الكتب"؛ ولكن بائية ابن عثيمين ليست مجرد معارضة غاية قائلها إبراز مقدرته الأدبية، كما أنها ليست مجرد محاكاة وتكرار لنص شعري قديم يحتفي بانتصار المسلمين على أعدائهم الروم، وإنما تتعدى القصيدة تلك الوظيفة الاحتفالية بالانتصار على العثمانيين، لتحقق وظيفتين تتعلقان بمستويات اللغة عند أوستن:

1. وظيفة تقريرية: وتتمثل في إحياء صورة الخليفة الشرعي القائم بأمر الله في أرضه، وتصوير فتح الأحساء بصورة الفتح الإلهي على يد خليفة المسلمين، مثلما صور أبو تمام في بائيته معجزة فتح عمورية على يد المعتصم.
2. وظيفة أدائية: وتتمثل في أداء البيعة للملك عبدالعزيز. وقد اختار ابن عثيمين من النص النموذج (نص أبي تمام) عددا من العناصر التي تحقق تلك الغاية الأدبية-السياسية المتمثلة في مدح الملك وأداء البيعة له، واستبعد العناصر الأخرى التي لا تتوافق ووظيفة النص.

الجزء (1): المطلع

1. العِزُّ وَالمَجدُ في الهِندِيَّةِ القُضُبِ
لا في الرَسائِلِ وَالتَنميقِ لِلخُطَبِ
2. تَقضي المَواضي فَيَمضي حُكمُهَا أَمَما
إِن خالَجَ الشَكُّ رأيَ الحاذِقِ الأَرِبِ
3. وَلَيسَ يَبني العُلا إِلاّ نَدىً وَوَغىً
هُما المَعارِجُ لِلأَسنى مِنَ الرُتَبِ[3]

جاء المطلع في بائيتي أبي تمام[4] وابن عثيمين

(1) هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، 103.

(2) ولد الشاعر محمد بن عثيمين عام 1260هـ في الخرج، وفيها بدأ دراسته الدينية، ثم انتقل إلى أم القوين، ومنها إلى قطر، وعاش في كنف آل ثاني الذين أكرموه ومدحهم في شعره، وسافر إلى البحرين، واتصل بأمرائها من آل خليفة، ونال حظوتهم، ولما دخل الملك عبدالعزيز الأحساء قصده الشاعر، ومدحه ببائيته، ثم قصر مدائحه على الملك وأمراء آل سعود. انظر: الشنطي، 1997م، في الأدب العربي السعودي وفنونه واتجاهاته ونماذج منه، 82.

(3) التزم البحث في الاقتباسات الخاصة بقصيدة فتح عمورية بنص القصيدة كما وردت في شرح التبريزي لديوان أبي تمام، انظر: التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، 32 - 49.

(4) يقول أبو تمام في مطلع قصيدته:
السيفُ أصدقُ أنباءً منَ الكُتب
في حَدِّه الحدُ بين الجدِّ واللَّعب
التزم البحث في الاقتباسات الخاصة بقصيدة فتح عمورية بنص القصيدة كما وردت في شرح التبريزي لديوان أبي تمام، انظر: التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، 32 – 49.

بصيغة الإخبار، وكأنه إجابة عن سؤال لمتلق متخيل في ذهن الشاعر، مضمون هذا السؤال في قصيدة أبي تمام «أيهما أصدق أنباء: القوة المتمثلة في السيف، أم التنجيم ونبوءات المنجمين المتمثلة في الكتب؟» ثم تأتي القصيدة لتجيب عن هذا السؤال، ولتصور انتصار السيف وقدرته على هزيمة المنجمين، ودحر بني الأصفر، ودك حصونهم، ورفع راية الإسلام، أما في قصيدة ابن عثيمين، فالسؤال مختلف وهو «كيف يتحقق العز والمجد، بالقوة المتمثلة في الهندية القضب، أم بالوعيد والمفاوضات المتمثلة في الرسائل والخطب المنمقة؟» وتتطابق إجابة الشاعر السعودي لهذا التساؤل مع إجابة سلفه العباسي، فتصور بائية ابن عثيمين كيف استطاع الممدوح الملك عبد العزيز بسيفه وقوته أن يحاكي المعتصم وينتصر على العجم والعرب ويفتح الأحساء.

إن ابن عثيمين في بائيته عامة، ومقدمتها على وجه الخصوص، يقتبس من الشعر القديم تلك العناصر التي تحقق غايته من القصيدة، دون أن يتكبد عناء الابتداع في المعاني والتراكيب، فلم يرد ابن عثيمين من قصيدته أن تأتي بالجديد المبتكر بدليل معارضته لقصيدة قديمة هي قصيدة أبي تمام، وإنما أراد أن يقترب بنصه إلى حد التماهي مع النص العربي القديم لغرض يتعلق بوظيفة النص لا بطبيعته، فالغرض من القصيدة ليس إحياء الشعر القديم كما هو الحال في الكثير من معارضات الشاعر الأخرى، ومعارضات أقرانه من جيل الطليعة الأولى من الشعراء المحافظين، وإنما تتمثل وظيفة النص في إحياء صورة الممدوح والقائد البطل في الشعر العربي القديم. ولو تجاوزنا المعنى السطحي للجزء الافتتاحي من البائية إلى المعنى العميق، فسيتضح أن الشاعر باتكائه على المعاني القديمة يريد أن يؤسس في ذهن المتلقي لعلاقة تطابقية بين شخصية الممدوح الملك عبدالعزيز وفتوحاته من جهة، وشخصية المعتصم وفتوحاته من جهة أخرى، وهذا التطابق لا يقف عند حد الماضي والحاضر بل يتجاوزهما إلى المستقبل؛ لأن قصيدة المدح كما ترى سوزان ستيتكيفيتش «ليست مجرد تكرار أو إعادة تمثيل للماضي، وإنما تعيد الماضي أو تعيد تشكيله لتؤكد الحاضر»[1].

الجزء (2): المديح

4. وَمُشمَعِلٌّ أَخو عَزمٍ يُشَيِّعُهُ
قَلبٌ صَرومٌ إِذا ما هَمَّ لَم يَهَبِ
5. لِلَّهِ طَلّابُ أَوتارٍ أَعَدَّ لَها
سَيرا حَثيثًا بِعَزمٍ غَيرِ مُؤتَشِبِ
6. ذاكَ الإِمامُ الَّذي كادَت عَزائِمُهُ
تَسمو بِهِ فَوقَ هامِ النَسرِ وَالقُطُبِ
7. عَبدُ العَزيزِ الَّذي ذَلَّت لِسَطوَتِهِ
شوسُ الجَبابِرِ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ
8. لَيثُ اللُيوثِ أَخو الهَيجاءِ مِسعَرُها
السَيِّدُ المُنجِبُ اِبنُ السادَةِ النُجُبِ
9. قَومٌ هُمُ زينَةُ الدُنيا وَبَهجَتُها
وَهُم لَها عَمَدٌ مَمدودَةُ الطُنُبِ
10. لَكِنَّ شَمسَ مُلوكِ الأَرضِ قاطِبَةً
عَبدُ العَزيزِ بِلا مَينٍ وَلا كَذِبِ

باتباع التفريق الذي أسسه اللغويون بين الخطاب وفحوى الخطاب، فالأول يعني ما أفاده النص من ظاهر صيغته، بينما يعني الأخير ما أفاده الخطاب لا من صيغته، ولم يشر إليه ظاهر النص، فيمكن التفريق في هذا الجزء من القصيدة بين الخطاب المتمثل في وصف شجاعة الممدوح وأفضليته على غيره من جهة، وفحوى الخطاب التي تتجاوز ظاهر النص لتدلنا على المستوى الإنجازي للغة في هذا الجزء من جهة أخرى، فالمديح في الجزء الثاني من القصيدة ليس مقصودا لذاته فحسب، وإنما يتضمن معنى ترشيح الممدوح لتولي السلطة، كما يؤدي وظيفة البيعة السياسية من الشاعر للممدوح.

إن اختيار الشاعر ابن عثيمين لقصيدة احتفالية كتبها شاعر البلاط أبو تمام لتكون أنموذجا لقصيدته يحمل رسالة سياسية لخصوم الملك عبد العزيز مضمونها: إن فتوحات الممدوح الملك ستستمر كما استمرت فتوحات سلفه العباسي المعتصم، وانتصاره على أعدائه سيتحقق كما تحقق انتصار المعتصم على خصومه، فمحاكاة قصيدة تمدح الخليفة الأول للمسلمين في العصر العباسي تفيد بأن الممدوح هو الوارث الحقيقي للخلافة الإسلامية، وأنه أحق من خصومه ومنافسيه بالسلطة السياسية كما كان المعتصم أحق من غيره

(1) ستيتكيفيتش، القصيدة والسلطة، 116.

بالخلافة، وقد أكد الشاعر هذه الرسالة السياسية تصريحا باعتبار الملك عبد العزيز شمسا للملوك الأرض قاطبة، وذلك في قوله:

10.لكِنَّ شَمسَ مُلوكِ الأَرضِ قاطِبَةً
عَبدُالعَزيز بِلا مَينٍ وَلا كَذِبِ

إضافة إلى ربطه بين الفتح وإرادة الله عز وجل في قوله:

23. اللَهُ أَكبَرُ هذا الفَتحُ قَد فُتِحَت
بِهِ مِنَ اللَهِ أَبوابٌ بِلا حُجُبِ

كما ألمح الشاعر على أحقية الممدوح بالملك دون غيره، وذلك باستخدامه للقب «الإمام» في قوله:

6. ذاكَ الإِمامُ الَّذي كادَت عَزائِمُهُ
تَسمو بِهِ فَوقَ هامِ النَسرِ وَالقُطُبِ

ولقب «الإمام» هو المرادف السياسي للقب «الخليفة»، وكما يلاحظ أمين فإن لقب «الإمام» «ينسجم مع تعاليم الدعوة»[1]، أي أنه يتضمن دلالة دينية تضاف إلى دلالته السياسية. وفي ذكر ابن عثيمين لمناسبة قصيدته في ديوانه العقد الثمين دليل على أنه يرى أن الملك عبدالعزيز هو الخليفة الشرعي للمسلمين عامة، فقد قال ممهّدا لقصيدته: «أما بعد، فإنه لما منَّ الله على إمام المسلمين، وأمير المؤمنين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل باستيلائه على الأحساء والقطيف...»[2]، وإذا كان المعتصم خليفة للمسلمين، فإن قصيدة ابن عثيمين تصور الملك في صورة أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين.

وإذا كانت بائية أبي تمام تعيد بناء العلاقة بين المالك الحر والمملوك الخاضع، فإن بائية ابن عثيمين تعيد بناء هرم السلطة السياسية في الأحساء خاصة والجزيرة عامة. فبعد أن تعدى الرجل الرومي على المرأة المسلمة، جاءت بائية أبي تمام لتصور التحول الذي أحدثه المعتصم، حيث أعاد بناء العلاقة بين المملوك المسلم (المرأة التي استغاثت بالمعتصم) والمالك الرومي (رجال الروم الذين أسروا المرأة)، ليصبح المسلم مالكا والرومي مملوكا، وتصبح عمورية التي صورتها قصيدة أبي تمام كامرأة رومية بكر عجزت كل الإمبراطوريات السابقة عن الوصول إليها جارية عند الخليفة. وفي ذلك يقول أبو تمام:

17.بِكرٌ فَما اِفتَرَعتَها كَفُّ حادِثَةٍ
وَلا تَرَقَّت إِلَيها هِمَّةُ النُوَبِ
18.مِن عَهدِ إِسكَندَرٍ أَو قَبلَ ذَلِكَ قَد
شابَت نَواصي اللَيالي وَهيَ لَم تَشِبِ

وفي المقابل، كانت السلطة قبل فتح الأحساء لبني خالد، فجاء الفتح بالتغيير السياسي ليصبح الملك عبد العزيز على رأس هرم السلطة بعد تغلبه على العرب (بني خالد) والعجم (العثمانيين)، كما أشار إلى ذلك الشاعر في الشطر الثاني من قوله:

7.عَبدُ العَزيزِ الَّذي ذَلَّت لِسَطوَتِهِ
شوسُ الجَبابِرِ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ

لقد استحق الممدوح أن يكون على قمة هرم السلطة السياسية لأسباب ثلاث، يتعلق الأول بالإرادة الإلهية، وقد أشار الشاعر إلى ذلك في قوله:

23. اللَهُ أَكبَرُ هذا الفَتحُ قَد فُتِحَت
بِهِ مِنَ اللَهِ أَبوابٌ بِلا حُجُبِ

بينما يتعلق السبب الثاني بشجاعته، وقوته التي تعدت العرب إلى العجم، كما وصفه الشاعر بقوله:

7.عَبدُ العَزيزِ الَّذي ذَلَّت لِسَطوَتِهِ
شوسُ الجَبابِرِ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ

أما السبب الثالث فهو انتماؤه لعائلة آل سعود، وهو ما عبر عنه الشاعر بوصفه للممدوح بأنه «السيد المنجب ابن السادة النجب» (البيت 8)، ثم بوصفه لعائلة الممدوح بـ«زينة الدنيا» في البيت التالي:

9.قَومٌ هُمُ زينَةُ الدُنيا وَبَهجَتُها
وَهُم لَها عَمَدٌ مَمدودَةُ الطُنُبِ

فالشاعر باستدعائه لآباء الملك ليس مجرد مادح، وإنما يريد أن يقول لخصوم الملك السياسيين: إن مُلك آل سعود ليس مُلكا حديث العهد بل هو ممتد لقرون مضت، وقد جاء في لسان العرب «أَنْجَبَ الرجلُ أَي ولَدَ نَجِيبا ... والجمع النُّجبُ والنَّجائبُ»[3]. ففي قول الشاعر «ابن السادة النجب» دلالة على أن الممدوح ورث الملك من آبائه، كما أن في قوله «السيد المنجب»

(1) أمين، الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، 85.
(2) ابن عثيمين، العقد الثمين، 29.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة «نجب».

دلالة أخرى على أن الملك سيستمر في أبنائه.

ويمكن وصف اللغة في هذا الجزء بأنها لغة إنجازية لا تقف عند حد الإخبار، وإنما تتجاوزه إلى الالتزام، وقد تحقق شرط الصدق الذي وضعه أوستن كي يكون فعل التلفظ ذا أثر إنجازي في قوله:

10. لكِنَّ شَمسَ مُلوكِ الأَرضِ قاطِبَةً
عَبدُ العَزيزِ بِلا مَينٍ وَلا كَذِبِ

فتفضيله للملك دون غيره ليس مينا ولا كذبا، والمين والكذب مترادفان، وتكرارهما في قوله «بلا مين ولا كذب» يعني أن الشاعر ملتزم بصدق كلامه، وبيعته هي بيعة منجزة.

لقد جرى الشاعر على سنن العرب في مدحهم الخلفاء باستخدامه أسلوب الاستثناء بـ«لكن» في البيت العاشر ليضع الممدوح في منزلة تسمو به فوق منزلة غيره، فالبيت العاشر يعيد استدعاء صورة من أشهر صور المديح السياسي في الشعر العربي لغرض تأكيد التطابق بين شخصيتي الملك عبد العزيز من جهة، وأسلافه العرب من جهة أخرى، وقد أخذ معناه من قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر:

كأنكَ شمسٌ والمُلُوكُ كواكبٌ
إذا طلعتْ لم يبْدُ منهنَّ كوكبُ[2]

والفرق بينهما هو أن الشاعر الجاهلي استخدم الصورة في سياق وصفه بشاشة وجه النعمان، بينما انحرف الشاعر السعودي بالمعنى ليجعله في سياق التفضيل المطلق، مؤكدا ذلك باللفظ «قاطبة» في البيت العاشر. وقد اعتبر قدامة في تفريقه بين مدح الملوك ومدح غيرهم، من خلال الأمثلة التي أوردها أن تشبيه الممدوح بالشمس مرتبط بمدح الملوك[2]، وهو ما يناسب الوظيفة الإنجازية لنص ابن عثيمين، والمتمثلة في أداء البيعة للملك الجديد.

إن استدعاء تاريخ الشاعر قبل لقائه الأول بالملك عبد العزيز سيساعد في إدراك الدلالة الإنجازية للبائية وجزئها الثاني عامة، وللبيت العاشر على وجه الخصوص، فلقد طاف ابن عثيمين في مطلع حياته وقبل إلقاء بائيته بأكثر من حاكم وأمير خليجي، وكانت له صلات قوية مع الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين وابنه محمد[3]، كما نادم الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر وابنه علي، ورفع رايتهم في ساحة القتال، وقد وصف محمد كافود العلاقة التي قامت بين ابن عثيمين، وأمير قطر الشيخ قاسم بن محمد وأبنائه علي وعبد الله بقوله: «وكان من رعايتهم (أمير قطر وأبنائه) له (ابن عثيمين) واهتمامهم به مكانة عظيمة في نفسه، جعلته يصل في إخلاصه لهم إلى درجة التضحية بنفسه في سبيل نصرتهم، وقد دلّل على ذلك حينما قُتل صديقه (علي) على يد العجمان، عندما أغاروا على قطر عام 1886م/ 1304هـ، فقام أهالي قطر برد الغارة والانتقام من العجمان، فبرز ابن عثيمين في مقدمة الجيش القطري وهو يحمل الراية، ويقاتل مع القطريين ضد أعدائهم»[4]، وقد عدَّه بعض النقاد شاعرا قطريا مقيما في نجد[5].

لقد عرف تاريخ الأدباء العرب كثيرا من التحولات من بلاط أمير إلى بلاط أمير آخر، من ذلك تحول المتنبي من ملازمة الوزير أبي العشائر إلى بلاط سيف الدولة، ثم إلى بلاط كافور، والثابت في أكثر هذه التحولات هو أن الشاعر يواجه تحديا يتمثل في إقناع الممدوح الجديد بصدق ولائه، ولم يكن ابن عثيمين بدعا من الشعراء، فكان لزاما عليه أن يؤكد ولاءه للملك دون غيره، وقد ذهب بعض الباحثين مذهبا سياسيا في التعليل لندرة الشعر الذي كتبه ابن عثيمين قبل سن الستين، فاعتبر أن الشاعر ربما يكون قد أتلف قصائده السياسية التي كتبها قبل ظهور الملك عبدالعزيز التي قد تصور ولاءاته السياسية قبل الحكم السعودي[6]. وفي هذا السياق جاءت البائية وهي أقدم قصائد ديوان ابن عثيمين تاريخا[7] لتعلن تحول الشاعر من ولاء سياسي سابق إلى ولاء جديد يوافق رؤيته الدينية، ويعيده إلى نجد.

ولعل تحول الشاعر إلى الولاء للحكم السعودي ورغبته في نفي الولاءات السابقة هو ما يفسر، أولا، إلحاح الشاعر على أحقية الملك عبدالعزيز دون غيره بالحكم، وهو ما عبر عنه باستخدام اسم الإشارة

(1) الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، 28.
(2) ابن جعفر، نقد الشعر، 106-107.
(3) ابن حسين، الأدب الحديث في نجد، 33.
(4) كافود، الأدب القطري الحديث، 354.
(5) انظر: حسين، التنازع على الشعراء في الخليج والجزيرة، 47-63، وكافود، الأدب القطري الحديث، 352 - 358.
(6) كافود، الأدب القطري الحديث، 355.
(7) الأنصاري، الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، 92.

متبوعا بالبدل «ذاك الإمامُ الذي كادت عزائمُه» (البيت 6)، وبقوله «ذلَّت لسطوته شوسُ الجبابرِ من عجم (الأتراك والبريطانيون) ومن عربٍ (بني خالد)» (البيت 7)، ووصف الملك بشمس ملوك الأرض وتأكيد هذا الوصف بلفظة «قاطبة» (البيت 10)، كما يفسر، ثانيا، التزام الشاعر في كل قصائد المدح السياسي التي قالها بعد هذه القصيدة بمديح الملك عبد العزيز وأسرة آل سعود دون غيرهم، فهي القصيدة الأولى التي يلقيها الشاعر في لقائه الأول مع الملك، وكانت كما يصفها ابن إدريس «مفتاح الصلة بينه (ابن عثيمين) وبين الأسرة السعودية، ومن ثم قصر شعره على مدح الملك الراحل، والملك القائم سعود، وعلى الأمير فيصل»[1]. إضافة إلى ذلك، فإن رغبة الشاعر في التعبير عن ولائه الجديد للحكم السعودي هي ما قد يفسر الانفصال الجزئي في هذا القسم من القصيدة عن بائية أبي تمام.

الجزء (3): الوصف المباشر للفتح

11. قادَ المَقانِبَ يَكسو الجَوَّ عِثْيَرُها
سَماءَ مُرتَكِمٍ مِن نَقعِ مُرتَكِبِ
12. حَتّى إِذا وَرَدَت ماءَ الصَراةِ وَقَد
صارَت لَواحِقَ أَقرابٍ مِنَ السَّغَبِ
13. قالَ النِزالُ لَنا في الحَربِ شِنشِنَةٌ
نَمشي إِلَيها وَلَو جَثيا عَلى الرُّكَبِ
14. فَسارَ مِن نَفسِهِ في جَحفَلٍ حَرِدٍ
وَسارَ مِن جَيشِهِ في عَسكَرٍ لَجِبِ
15. حَتّى تَسَوَّرَ حيطانا وَأَبنِيَةً
لَولا القَضاءُ لَما أُدرِكنَ بِالسَّبَبِ
16. لَكِنَّها عَزمَةٌ مِن فاتِكٍ بَطَلٍ
حَمى بِها حَوزَةَ الإِسلامِ وَالحَسَبِ
17. فَبَيَّتَ القَومَ صَرعى خَمرِ نَومِهِمُ
وَآخَرينَ سُكارى بِابنَةِ العِنَبِ

تبرز الوظيفة التقريرية للغة في هذا الجزء من القصيدة بينما تتوارى اللغة الإنجازية، فالشاعر يصور حدثا تاريخيا بلغة مرجعية تحيل إلى وقائع تحاكي تسلسل الأحداث في الرواية التاريخية سالفة الذكر لأحداث فتح الأحساء، ولا تتضمن أي دلالة إنجازية تفيد معنى الالتزام بإنجاز فعل مستقبلي، كما أنها ليست لغة شعرية تقوم على المجازات والاستعارات، والهدف من استدعاء النص لبعض المفردات غير المألوفة مثل لواحقٌ وأقراب (البيت 12) هو إضفاء صفة الشعرية على هذا الوصف الدقيق للأحداث، فقد التفت الشاعر إلى تطور الأحداث والتحديات التي واجهت الممدوح قبل الفتح، بينما تجاهلت قصيدة أبي تمام أي تصوير لحالة الممدوح النفسية قبل الفتح[2]، بل تجاهلت أي وصف تاريخي للأحداث التي سبقت الفتح، باستثناء نداء المرأة في قوله:

46. لَبَّيتَ صَوتا زِبَطرِيّا هَرَقتَ لَهُ
كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

وتشكيك المنجمين في توقيت الغزو:

4. أَينَ الرِوايَةُ بَل أَينَ النُجومُ وَما
صاغوهُ مِن زُخرُفٍ فيها وَمِن كَذِبِ
10. لَو بَيَّنَت قَطُّ أَمرا قَبلَ مَوقِعِهِ
لَم تُخفِ ما حَلَّ بِالأَوثانِ وَالصُلُبِ

فقد أراد ابن عثيمين بوصفه الدقيق للأحداث في هذا الجزء من القصيدة أن يصور قوة الملك عبدالعزيز الذي استطاع بعدد قليل من الرجال أن ينتزع الأحساء من العثمانيين.

الجزء (4): الفتح الإلهي بين الاستخدامين الإنجازي والتقريري

18- في لَيلَةٍ شابَ قَبلَ الصُبحِ مَفرِقُها
لَو كانَ تَعقِلُ لَم تُملَك مِنَ الرُعُبِ
19- أَلقَحتَها في هَزيعِ اللَيلِ فَامتَخَضَت
قَبلَ الصَباحِ فَأَلقَت بَيضَةَ الحُقُبِ
20- كانوا يَعُدُّونَها نَحسا مُذَمَّمَةً
وَاللَهُ قَدَّرَها فَرّاجَةَ الكُرَبِ
21- صَبَّ الإِلهُ عَلَيهِم سَوطَ مُنتَقِمٍ
مِن كَفِّ مُحتَسِبٍ لِلَّهِ مُرتَقِبِ
22- في أَوَّلِ اللَيلِ في لَهوٍ وَفي لَعِبٍ
وَآخِرِ اللَيلِ في وَيلٍ وَفي حَرَبِ
23- اللَهُ أَكبَرُ هَذا الفَتحُ قَد فُتِحَت
بِهِ مِنَ اللَهِ أَبوابٌ بِلا حُجُبِ
24- فَتحٌ تُؤَرِّجُ هَذا الكَونَ نَفحَتُهُ
وَيُلبِسُ الأَرضَ زِيَّ الصارِحِ الطَرِبِ
25- فَتحٌ بِهِ أَضحَتِ الأَحساءُ طاهِرَةً
مِن رِجسِها وَهْيَ فيما مَرَّ كَالجُنُبِ

يمتزج الاستخدام التقريري للغة بنظيره

(1) ابن إدريس، شعراء نجد المعاصرون دراسة ومختارات، 58.

(2) انظر: ملحق البحث للاطلاع على قصيدة أبي تمام.

الإنجازي في هذا الجزء من قصيدة ابن عثيمين، فالشاعر يبني الجزء الرابع من قصيدته على فكرة الاختيار الإلهي للملك، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾[1] فلغة هذا الجزء تقريرية في مستواها السطحي؛ ولكنها ذات دلالة إنجازية في مستواها العميق.

لم يكن فتح الأحساء كما تصوره القصيدة مجرد انتصار تاريخي من انتصارات الملك عبد العزيز، وإنما هو فتح إلهي يؤكد أحقية الملك بالسلطة السياسية، فالتكبير كما في قوله في البيت الثالث والعشرين «اللَهُ أَكبَرُ هذا الفَتحُ» مرتبط في الإسلام بالنصر الإلهي على الأعداء، وجاء تأكيد ذلك باستخدام اسم الإشارة (هذا) متبوعا بالاسم المعرف بأل «الفتح»، ثم نسب هذا الفتح إلى الله عز وجل في قوله «قد فتحت به من الله أبواب بلا حجب». فالشاعر يحاكي أبا تمام في بيته:

12- فَتحٌ تَفَتَّحُ أَبوابُ السَماءِ لَهُ
وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ

فقد قدر الله عز وجل أن يكون فتح الأحساء «فراجة الكرب» كما جاء في البيت العشرين، وتحقق هذا الفتح كما تصوره القصيدة على يد قائد ملهم يغضب وينتقم لحرمات الله، وبإرادة إلهية كما يقول الشاعر:

21- صَبَّ الإِلهُ عَلَيهِم سَوطَ مُنتَقِمٍ
مِن كَفِّ مُحتَسِبٍ لِلَّهِ مُرتَقِبِ

وفي إلحاح ابن عثيمين على اعتبار فتح الأحساء نصرا إلهيا، وربطه بين انتصار الملك والإرادة الإلهية، دلالة إنجازية تحمل بطريقة غير مباشرة معنى البيعة للممدوح الذي وهبه الله الملك، ويجب على الجميع أن يبايعوه خليفة للمسلمين، وفتحه للأحساء كان فتحا كونيا تفتحت له أبواب السماء (البيت 23).

الجزء (5): التطابق بين بني هجر والمرأة المسلمة

26- شُكرا بَني هَجَرٍ لِلمُقرِنِيِّ فَقَد
مِن قَبلِهِ كُنتُمُ في هُوَّةِ العَطَبِ
27- قَد كُنتُمُ قَبلَهُ نَهبا بِمَضيَعَةٍ
ما بَينَ مُفتَرَسٍ مِنكُم وَمُستَلَبِ

(1) آل عمران: 26.

28-رومٌ تُحَكِّمُ فيكُم رَأيَ ذي سَفَهٍ
أَحكامَ مُعتَقِدِ التَّثليثِ وَالصُّلُبِ
29-وَلِلأَعاريبِ في أَموالِكُم عَبَثٌ
يَمْرُونَكُم مَرِيَ ذاتِ الصِّنوِ في الحَلَبِ
30- وَقَبلَكُم جُنَّ نَجدٌ وَاستُطيرَ بِهِ
فُؤادَهُ بِشِفارِ البيضِ وَالسَلَبِ

يتحول الشاعر في هذا الجزء من القصيدة إلى اللغة التقريرية، وغايته أن يؤسس لتطابق بين بني هجر وامرأة عمورية من جهة، وبين المعتصم والملك عبد العزيز من جهة أخرى، وقد استدعت القصيدة من قصة فتح عمورية عنصري العدو (الروم) والفتح السابق (فتح أنقرة قبل عمورية[2]، وفتح نجد قبل الأحساء) لتكتمل عناصر التطابق بين الممدوحَين، فمسمى «الروم» (البيت 28) يحمل دلالة مباشرة ودلالة إيحائية، فهو في دلالته المباشرة يشير إلى «الإفرنج، بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين»[3]، وفي المستوى الإيحائي، تنتمي كلمة «الروم» في اللغة والتاريخ العربيين إلى حقل دلالي يشمل «الكفار»، و«المسيحيين»، و«غير العرب»، و«العجم»، و«العدو» ...إلخ. ولو بحثنا عن أقرب معنى مباشر لمسمى «الروم» في قوله:

28- رومٌ تُحَكِّمُ فيكُم رَأيَ ذي سَفَهٍ
أَحكامَ مُعتَقِدِ التَّثليثِ وَالصُّلُبِ

فالأقرب أنه يقصد «البريطانيين» الذين كان نفوذهم واسعا في الخليج في تلك الحقبة؛ ولكن التاريخ قد ينفي هذه الدلالة؛ لأن بني خالد كانوا يحكمون باسم الدولة العثمانية لا باسم الإمبراطورية البريطانية.

يقصد ابن عثيمين بمسمى «الروم» الدولة العثمانية، كما ذكر ذلك ابن رويشد في قوله: «يقصد الشاعر بالروم الأتراك، وهم ليسوا من الروم»[4]، وقد اعتبر السماعيل أن ابن عثيمين نظر في بائيته «إلى حروب الملك عبد العزيز ضد الأتراك في منطقة الأحساء نظرة إسلامية، واعتبرها صراعا بين عقيدة التوحيد وعقيدة الصليب

(2) يقول أبو تمام في فتح أنقرة قبل فتح عمورية:
21 - جَرى لَها الفَأل بَرحا يَومَ أَنقَرَةٍ
إِذ غودِرَت وَحشَةَ الساحاتِ وَالرُّحَبِ

(3) ابن العبري، 1992م، تاريخ مختصر الدول، 1/64.

(4) ابن عثيمين، (د.ت)، العقد الثمين، 34.

والتثليث، فقد اختلطت في ذهنه بسبب حماسته الدينية صور الواقع، فوصف الأتراك المسلمين بأنهم روم مسيحيون يعتقدون بالتثليث، ويؤمنون بعقيدة الصليب»[1]، ولم يدرك السماعيل البعد الذي قصده الشاعر باستخدامه كلمة «الروم»؛ لأن السماعيل وقف عند الدلالة المباشرة للكلمة دون أن يتجاوزها إلى الدلالة الإيحائية، ولكشف هذه الدلالة الإيحائية لابد من العودة إلى نص بائية أبي تمام.

صورت قصيدة أبي تمام المعتصم على أنه خليفة المسلمين الذي استطاع أن يهزم الروم، وهم العدو المسيحي الأبرز للمسلمين على مر التاريخ، وكان من نتائج فتح عمورية أنها كما يقول أبو تمام:

71- أَبقَت بَني الأَصفَرِ المِراضِ كَاسِمِهِمُ
صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ

ولكي يكتمل التطابق بين الملك من جهة والمعتصم من جهة أخرى، كان لزاما على الشاعر السعودي أن يوجد، أولا، معادلا تاريخيا لـ «بني الأصفر»، و يصنع عدوا من غير المسلمين يحاكي العدو الرومي في بائية أبي تمام، ثم ينتقل، ثانيا، إلى وصف انتصار الممدوح على هذا العدو بطريقة تحاكي وصف الشاعر العباسي لانتصار المعتصم على أعدائه الكفار، ولو اختار الشاعر وصف «العثمانيين» أو «الأعداء»، فلن يكتمل التطابق بين الملك والمعتصم؛ من هنا، لجأ الشاعر السعودي إلى تاريخ فتح عمورية، واقتبس وصف «الروم» الذين يشتركون مع العثمانيين المسلمين في خلقتهم الجسدية، وبياضهم، وعدائهم في تلك الفترة للقومية العربية؛ ولكنهم يختلفون معهم في الدين، وقد وسع ابن عثيمين الدائرة الدلالية لمصطلح «الروم» ليصف به الحكم العثماني، كما يستدعي الشاعر باستخدامه لكلمة «الروم» صراعا طويلا بين المسلمين وأعدائهم الروم، ليصور فتح الأحساء بصورة الفتح الذي يحاكي الانتصارات التاريخية للمسلمين على الروم كما حدث في اليرموك وعمورية. فوصف العثمانيين بـ «الروم» يوحي بأن ابن عثيمين يتهم العثمانيين بالكفر والتثليث؛ ولكن الحقيقة هي أن غرضه لم يكن تكفير العثمانيين، وإنما تصوير الممدوح في صورة خليفة المسلمين الذي يحارب العدو التاريخي الأول لدولة الإسلام.

ولاختيار الشاعر لاسم «نجد» في قوله مخاطبا بني هجر: «وَقَبلَكُم جُنَّ نَجدٌ وَاستُطيرَ بِهِ» بعدٌ سياسي يتجاوز وظيفة الاسم كعلامة لغوية دالة، فلمسمى «نجد» في البيت الثلاثين وظيفتان: شعرية وسياسية؛ فـ «نجد» في وظيفتها الشعرية هي المعادل النصي لـ«أنقرة» في قصيدة عمورية، وقد صور أبو تمام العلاقة بين فتحي أنقرة وعمورية بقوله:

21- جَرى لَها الفَأْلُ بَرحا يَومَ أَنقَرَةٍ
إِذ غودِرَت وَحشَةَ الساحاتِ وَالرُّحَبِ

22- لَمّا رَأَت أُختَها بِالأَمسِ قَد خَرِبَت
كانَ الخَرابُ لَها أَعدى مِنَ الجَرَبِ

ولاختيار مسمى «نجد» دون غيره دلالة سياسية تضاف لدلالته الشعرية، فعندما دخل العثمانيون الأحساء دخولهم الأخير قبل سقوطها في يد الجيش السعودي، جاء الأمر من والي بغداد مدحت باشا فجيش الجيوش بقيادة محمد نافذ باشا سنة 1288هـ، وسيطر على الأحساء، وأطلق عليها اسم «ولاية نجد»[2]. لذا، فالتفريق بين منطقة نجد ومنطقة الأحساء في البيت الثلاثين يمثل - إلى حد ما - رِدة على القرار العثماني بإطلاق مسمى «نجد» على الأحساء، وعودة إلى ما كان عليه الحال في العهد السعودي الأول.

الجزء (6): المديح التقريري

31- شَوارِدٌ قَيَّدَتها صِدقُ عَزمَتِهِ
فَظَلنَ يَرفُسنَ بَعدَ الوَخدِ وَالخَبَبِ

32- مَلْكٌ يَؤودُ الرَّواسي حَملُ هِمَّتِهِ
لَو كانَ يُمكِنُ أَرقَتْهُ إِلى الشُّهُبِ

33- وَيَركَبُ الخَطبَ لا يَدري نَواجِذَهُ
تَفتَرُّ عَن ظَفَرٍ في ذاكَ أَو شَجَبِ

(1) السماعيل، المعارضات الشعرية دراسة تاريخية نقدية، 202.

(2) يقول أحد شعراء الأحساء مادحا الملك عبد العزيز، وواصفا دخوله لمنطقة الأحساء التي سماها "نجد" في البيت الأول، و"الأحساء" في البيت الثاني:
ديار لوى نجد أتاها سعودها
وعاد لها بالأروع الشهم عيدها
همام أتى الأحساء وهي مريضة
يظن بها أن الشقا لا يعودها
الفوزان، شعراء مرحلة التقليد المتطور وشعرهم في المنطقة الشرقية 1157 - 1343هـ/ 1744-1924م، 19.

34- إذا الملوكُ استَلانوا الفُرشَ وَاتَّكَؤوا
عَلى الأَرائِكِ بَينَ الخُرَّدِ العُرُبِ
35- فَفي المَواضي وَفي السُّمرِ اللِّدانِ
وَفي الجُردِ الجِيادِ لَهُ شُغلٌ عَنِ الطَرَبِ

يستمر هذا الجزء من البائية في مدح الملك عبد العزيز، وفي الحديث عن قوة عزيمته وعلو همته، فعزيمته كما يصورها هذا الجزء من القصيدة هي التي دفعته في الماضي إلى تحقيق معجزة فتح الأحساء بعدد قليل من الرجال، كما أن همته هي التي ستدفعه في المستقبل إلى الاستمرار في طريق الفتوحات، فالشاعر يحاكي الأبيات الأخيرة من قصيدة أبي تمام، كقوله واصفا علو همة الخليفة:

67- خَليفَةَ اللَهِ جازى اللهُ سَعيَكَ عَن
جُرثومَةِ الدِينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ
68- بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها
تُنالُ إِلا عَلى جِسرٍ مِنَ التَّعَبِ

والفرق بين القصيدتين يتمثل في أن الشاعر العباسي تحدث عن عزيمة الممدوح في خاتمة قصيدته، بخلاف الشاعر السعودي الذي وصف علو همة ممدوحه في منتصف القصيدة؛ من هنا، يمثل هذا الجزء من قصيدة ابن عثيمين نهاية لمحاكاة القصيدة العباسية، وبداية لمرحلة الانفصال عن قصيدة أبي تمام.

الجزء (7): الانفصال عن النموذج العباسي

36- يا أَيُّها المَلِكُ المَيمونُ طائِرُهُ
اسمَع هُدِيتَ مَقالَ النّاصِحِ الحَدِبِ
37- اجعَلْ مُشيرَكَ في أَمرٍ تُحاوِلُهُ
مُهَذَّبَ الرَأيِ ذا عِلمٍ وَذا أَدَبِ
38- وَقَدِّمِ الشَّرعَ ثُمَّ السَيفَ إِنَّهُما
قِوامُ ذا الخَلقِ في بَدءٍ وَفي عَقِبِ
39- هُما الدَّواءُ لأَقوامٍ إِذا صَعَرَت
خُدودُهُم وَاستَحَقّوا صَولَةَ الغَضَبِ
40- وَاستَعمِلِ العَفوَ عَمَّن لا نَصيرَ لَهُ
إِلاّ الإِلهُ فَذاكَ العِزُّ فَاحتَسِبِ
41- وَاعقِد مَعَ اللَهِ عَزما لِلجِهادِ فَقَد
أوتيتَ نَصرا عَزيزا فَاستَقِم وَثِبِ
42- وَأَكرِمِ العُلَماءَ العامِلينَ وَكُن
بِهِم رَحيما تَجِدهُ خَيرَ مُنقَلَبِ
43- وَاحذَرْ أُناسا أَصارُوا العِلمَ مَدرَجَةً
لِما يُرَجُّونَ مِن جاهٍ وَمِن نَشَبِ

يمكن القول: إن هذا الجزء والأجزاء التي تليه من القصيدة تشكل انفصالا شبه تام عن بائية أبي تمام، فيكاد يخلو هذا الجزء من أي لفظ أو معنى مستعار من قصيدة عمورية، كما يتحول الضمير من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب، ومن زمني الماضي والحاضر إلى صيغة الالتماس والنصح.

لقد كان ابن عثيمين كما يصفه الأنصاري «أقدم أو من أقدم الشعراء في بلاط الملك عبدالعزيز»[1]، وبعد أن أثبت الشاعر صدق ولائه السياسي للملك في الأجزاء السابقة من القصيدة، أراد أن يؤسس لعلاقة مختلفة بينه وبين الملك عبدالعزيز، تختلف عن تلك التي كانت بين أبي تمام والمعتصم، لقد حاول الشاعر في هذا الجزء من قصيدته بطريقة غير مباشرة أن تكون له مكانة تحاكي تلك التي كانت لكبار العلماء والوعاظ الذين يحق لهم دون غيرهم تقديم الوعظ والنصح لأمير المؤمنين؛ لذا، يمكن قراءة هذا القسم والقسم الذي يليه من القصيدة في مستويين: خَطابي وشعري، وفي هذا القسم يبرز المستوى الخَطابي الذي يتخلى فيه الشاعر عن دوره الشعري ويرتدي ثياب الخطيب، وتتحول فيه العلاقة بين المتكلم والمتلقي من علاقة شعرية بين مادح وممدوح إلى علاقة خطابية بين ناصح ومستمع، فالشاعر في البيت السادس والثلاثين ينادي المتلقي: «يا أيها الملك الميمون»، ويطلب منه الاستعداد لتلقي الرسالة مستخدما الفعل «اسمع»، قبل أن يسرد عددا من النصائح المتعلقة بإدارة الحكم.

الجزء (8): الهدية الشعرية

44- هذا وَفي عِلمِكَ المَكنونِ جَوهَرُهُ
ما كانَ يُغنيكَ عَن تَذكيرِ مُحتَسِبِ
45- وَخُذ شَوارِدَ أَبياتٍ مُثَقَّفَةٍ
كَأَنَّها دُرَرٌ فُصِّلنَ بِالذَّهَبِ
46- زَهَتْ بِمَدحِكَ حَتّى قالَ سامِعُها
اللَهُ أَكبَرُ كُلُّ الحُسنِ في العَرَبِ

في مقابل الجزء السابق، يبرز المستوى الشعري في هذا الجزء من القصيدة، والمتمثل في العلاقة القديمة بين المادح والممدوح، وبالعودة إلى السياق التاريخي لفتح عمورية، يروي النويري عن بعض المؤرخين أنه لما فتح المعتصم عمورية، وامتدحه أبو تمام بقصيدته، «أعطاه عن كل بيت بها ألف

(1) الأنصاري، الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، 93.

درهم، وقيل إنه أقطعه مدينة الموصل»[1]، فقد قدم أبو تمام قصيدته هدية للمعتصم، ورد عليه الخليفة بجائزة، وبالمثل فقد قدم ابن عثيمين بائيته هدية شعرية وسياسية للملك عبد العزيز يؤكد فيها أحقيته الشرعية بالسلطة دون منافسيه، وكانت البائية أول قصيدة يمدح بها الشاعرُ الملكَ عبد العزيز، ويصف فتوحاته في جزيرة العرب، وقد كرَّس الشاعر الأبيات 1-35 لوصف الفتح ومدح الملك، ثم جاءت الأبيات 36-44 ثنائية الهدف لتقدم النصيحة للممدوح من جهة، ولتعكس صدق ولاء الشاعر للملك من جهة أخرى.

وقبل أن يختم الشاعر قصيدته، أراد أن يذكر المتلقي بقيمتها الفنية فتحول في الأبيات 45-46 إلى أسلوب الشعر عن الشعر أو «ما وراء الشعر» Meta-Poetry ، ليمدح شعره ويشبهه بالدر المذهب الزاهي بمدح الملك عبد العزيز، وإذا كان «تبادل الهدايا» يقوم على واجبات: الإعطاء، والقبول أو الأخذ، والإعطاء المقابل، فإن الشاعر في هذا الجزء من قصيدته قد أكمل الواجب الأول وهو الإعطاء، وأكد ذلك بالفعل «خذ» في قوله «وخذ شوارد أبيات مثقفة» (البيت 45)، أما الواجبان الثاني والثالث فيتعلقان بالمستقبل للهدية: الملك عبدالعزيز، وكي يكتمل التطابق بين الملك عبد العزيز والخليفة المعتصم، فقد كان على الملك أن يحاكي المعتصم في مكافأته لأبي تمام، فيقدم هدية مقابلة لمادحه ابن عثيمين.

على الرغم من أن ابن عثيمين كان كما يصفه ابن إدريس «يمدح الحكام بدافع الوفاء، لا للاستجداء، فإنه من أعف الناس نفسا، وأكثرهم بعدا عن التزلف والنفاق»[2] فقد قبل الملك عبد العزيز قصيدة ابن عثيمين باعتبارها هدية شعرية، وقدم للشاعر هدية أثمن من هديته. يقول عوض الله عن رد فعل الملك بعد سماع القصيدة: «فلقي (الشاعر) من جلالته (الملك عبدالعزيز) من الإكرام، ونال منه من جزيل الرفد وكرم الوفادة، ما أطلق لسان الشاعر بالثناء على جلالته دائما وأبدا. ومنذ ذلك الحين، تفيأ الشاعر ظل هذا الملك الجليل، ولجأ إلى كنفه، فأحاطه برعايته، وأجرى له من فضل إحسانه ما كفل له العيش الرضي ... يفد على جلالة الملك كل عام، فيعود منه بما أمل من جزيل الرفد»[3].

الجزء (9): خاتمة القصيدة

47- ثُمَّ الصَّلاةُ وَتَسليمُ الإِلـهِ عَلى
مَن خَصَّهُ اللَّهُ بِالأَسنى مِنَ الكُتُبِ
48- المُصطَفى مِن أَروم طابَ عُنصُرُها
مُحَمَّدِ الطَّاهِرِ بنِ الطَّاهِرِ النَّسَبِ
49- وَالآلِ وَالصَّحبِ ما ناحَت مُطَوَّقَةٌ
وَما حَدَا الرَّعدُ بِالهامي مِنَ السُّحُبِ

يشكل الفرق بين وظيفة نص أبي تمام ووظيفة بائية ابن عثيمين أحد أهم العوامل التي أدت إلى مخالفة الشاعر السعودي لمثله العباسي في الأجزاء الأخيرة من القصيدة، فقد جاءت بائية أبي تمام لتصور انتصار الممدوح على أعدائه، بينما أراد ابن عثيمين من قصيدته الأولى في الملك عبد العزيز أن تؤدي عددا من الوظائف، على رأسها الوظيفة الإنجازية المتمثلة في أداء البيعة للملك، فقد أدى الشاعر بيعته الدينية والسياسية في الأجزاء السابقة من القصيدة، ثم ختم بيعته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الجزء الأخير من بائيته.

وبالعودة إلى تقسيم أوستن السابق للأفعال الإنجازية إلى: فعل التلفظ، وفعل قوة التلفظ، وفعل أثر التلفظ، فإن إلقاء الشاعر لقصيدته أمام الملك يعتبر إنجازا لفعل التلفظ، والعرف في عصر الملك عبد العزيز كما في العصور العربية القديمة هو أن الشاعر الذي يمدح السلطان يكون ملزما بالولاء لذلك السلطان، ولا يجوز له مدح منافسيه، وهذا العرف يشكل فعلا لقوة التلفظ في تقسيم أوستن، كما أن الأثر المترتب على مديح السلطان مثل التزام الشاعر بالولاء السياسي تجاه الممدوح يمثل فعل أثر التلفظ، وفي التزام ابن عثيمين بعد هذه القصيدة بمدح عائلة الممدوح وأبنائه دون غيرهم دليل على توافر الفعل الثالث للكلام الإنجازي عند أوستن: فعل أثر التلفظ.

الخاتمة

سارت الدراسة في طريق مغاير لرأي أوستن في تصنيفه للغة الشعر على أنها لغة جمالية تطفلية، وقد تناولت بالتحليل قصيدة ابن عثيمين في فتح الأحساء وتوصلت إلى العديد من النتائج أهمها:

1. أن الشروط التي وضعها أوستن للكلام كي

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 189/22.
(2) ابن إدريس، شعراء نجد المعاصرون، 58.
(3) عوض الله، محمد بن عثيمين شاعر الملك عبدالعزيز، 50.

يستحق وصف «الإنجازي» متوفرة في بائية ابن عثيمين.

2. أن الاستخدام الشعري للغة ليس بالضرورة استخداما تطفليا على الاستخدام الاعتيادي للغة كما يرى أوستن، بل يمكن استخدام لغة الشعر في أداء بعض الأفعال الإلزامية الجادة كأداء البيعة السياسية.
3. أن ابن عثيمين نجح في توظيف النص الشعري لتأدية البيعة للملك عبد العزيز.
4. أن الاستخدام الشعري للغة لا يختلف من جهة الجدية وعدمها عن الكثير من الاستخدامات الأخرى، فالسياق هو الذي يحدد ما إذا كان الاستخدام اللغوي جديا أم هزليا، فقد يجعل السياق من نص نثري نصا هزليا غير جدي، كما قد يجعل من نص شعري نصا جادا.
5. يمكن افتراض أن أوستن انطلق في رؤيته لطبيعة الاستخدام الشعري للغة من اللغة المستخدمة في الآداب الأوروبية، ولا يمكن تعميم هذه الفرضية على الآداب العالمية الأخرى مثل الأدب العربي.
6. يوصي الباحث بالاستفادة من بعض النظريات البلاغية واللغوية الحديثة في دراسة الأدب العربي؛ ولكن بشرط تكييف هذه النظريات بطريقة تراعي سياق الأدب العربي.

المراجع

القرآن الكريم.

ابن إدريس، عبدالله. 1961م. شعراء نجد المعاصرون دراسة ومختارات. د.ط. دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر .

أمين، بكري شيخ. 1986م. الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية. الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

الأنصاري، عبدالقدوس. 1974م. الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر. د.ط. مؤسسة مكة المكرمة للطباعة، مكة المكرمة.

التبريزي، الخطيب. تحقيق: الأسمر، راجي. 1994م. شرح ديوان أبي تمام. الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر.

ابن جعفر، قدامة. تحقيق: خواجي، محمد. 1979م. نقد الشعر. د.ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

حسين، عبد الرزاق. 1985م. التنازع على الشعراء في الخليج والجزيرة. الطبعة الأولى، دار البشير، عمان، الأردن.

ابن حسين، محمد. تحرير: سرحان، عبدالسلام. 1971م. الأدب الحديث في نجد. الطبعة الأولى، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، مصر.

الذبياني، النابغة. شرح: عبدالستار، عباس. 1986م. ديوان النابغة الذبياني. الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الريحاني، أمين. 1928م. تاريخ نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبدالعزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما. ط1، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، لبنان.

ستيتكيفيتش، سوزان. ترجمة: عز الدين، حسن البنا. 2010م. القصيدة والسلطة الأسطورة الجنوسة والمراسم في القصيدة العربية الكلاسيكية. الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر.

السماعيل، عبدالرحمن. 1994م. المعارضات الشعرية: دراسة تاريخية نقدية. الطبعة الأولى، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية.

أبو الفداء، ابن شاهنشاه. 1907م. المختصر في أخبار البشر. د.ط. المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، مصر.

الشنطي، محمد. 1997م. في الأدب العربي السعودي وفنونه واتجاهاته ونماذج منه. الطبعة الثانية، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، المملكة العربية السعودية.

ابن العبري، غريغوريوس. 1992م. تاريخ مختصر الدول. الطبعة الثالثة، دار الشرق، بيروت، لبنان.

ابن عثيمين، محمد. شرح: ابن رويشد، سعد. د.ت. العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين. د.ط. دار المعارف، القاهرة، مصر.

عوض الله، السيد أحمد. 1979م. محمد بن عثيمين شاعر الملك عبدالعزيز. د.ط. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الفوزان، إبراهيم. 1998م. شعراء مرحلة التقليد المتطور وشعرهم في المنطقة الشرقية 1157-1343هـ/ 1744-1924م. الطبعة الأولى، مطابع القصيم، الرياض، المملكة العربية السعودية.

كافـود، محمـد عبدالرحيـم. 1982م. الأدب القطـري الحديـث. الطبعـة الثانيـة، دار قطـري بـن الفجـاءة، الدوحـة، قطـر.

ابـن منظـور، جمـال الديـن. 1994م. لسـان العـرب. الطبعـة الثالثـة، دار صـادر، بـيروت، لبنـان.

النويـري، أحمـد بـن عبـد الوهـاب. تحقيـق: قميحـة، مفيـد. 2004م. نهايـة الأرب في فنـون الأدب. الطبعـة الأولى، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، لبنـان.

هولـب، روبـرت. ترجمـة: إسـماعيل، عـز الديـن. 1994م. نظريـة التلقـي مقدمـة نقديـة. الطبعـة الأولى، النـادي الأدبي الثقـافي، جـدة، المملكـة العربيـة السـعودية.

Austin, J. L. 1975. How to Do Things with Words. 2 edition. Harvard University Press. Cambridge, Massachusetts.

AL-Mallah, M. 2003. Doing things with odes: A poet's pledge of allegiance: Ibn Darrāj al-Qasṭalli'sHā'iyyah to al-Manṣūr and Rā'iyyah to al-Mundhir. Journal of Arabic Literature. XXXIV. (1-2): 45-81.

Al-Musa, M. 2011. The Andalusian panegyric mu'āradah: Rhetorical strategy and speech act theory. PhD Thesis. Indiana University, Bloomington.

The Poetic Use of Language between Parasitism and Performance: Ode on the Conquest of al-Ahsā by Ibn Uthaymīn's as a Model

Mustafa Muhammad T. Binmayaba

College of Arts and Humanities, Department of Arabic Language and Literature
King Abdul-Aziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT

This study addresses the concept of 'poetic language' to challenge Austin's notion of the poetic use of language as 'a parasitic use' that imitates 'the normal use' of language which is not as serious and obligatory as the normal use. In posing this challenge, the aim is to demonstrate that the use of language in selected Arabic poetic texts is both serious and obligatory, and not merely parasitic.

Ibn Uthaymīn's ode on the conquest of al-Ahsā by King Abdul Aziz, is selected here as a model of performative poetry. By analyzing it in light of Austin's concept of speech acts, the present study demonstrates that some poetic texts can be interpreted as constituting independent performative structures. In addition, some of these poetic texts include performative sentences that transform the whole text, on one hand, and only some of its sentences, on the other, from constative locution, that can be true or false, into a performative statement that elicits a specific perlocutionary act.

Using integrated methodology that combines several scientific methods, the study concludes that Ibn Uthaymīn's ode on the conquest of al-Aḥsā contains a performative aspect in its pledge of allegiance to King Abdul Aziz, and not merely a nonobligatory poetic speech, as in Austin's notion of the use of language in poetry.

The study concludes with a recommendation to devote more attention to applying modern rhetoric, linguistic, and communication theories to a poetic text when formulating the nature of the relationship between writers and their texts after they have been recited or published. The analysis of aspects of this relationship between writers and their literary texts could also be the source of viable topics for future dissertations, scientific articles and specialized studies.

Key Words: King Abdul Aziz, Ode on the Conquest of Amorium, speech act.

ملحق

قصيدة فتح عمورية لأبي تمام[1]

السَّيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِن الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بيضُ الصَّفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ في ... مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ
وَالعِلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامِعَةً ... بَينَ الخَميسَينِ لا في السَّبعَةِ الشُّهُبِ
أَينَ الرِّوايَةُ بَل أَينَ النُّجومُ وَما ... صاغوهُ مِن زُخرُفٍ فيها وَمِن كَذِبِ
تَخَرُّصاً وَأَحاديثاً مُلَفَّقَةً ... لَيسَت بِنَبعٍ إِذا عُدَّت وَلا غَرَبِ
عَجائِباً زَعَموا الأَيّامَ مُجفِلَةً ... عَنهُنَّ في صَفَرِ الأَصفارِ أَو رَجَبِ
وَخَوَّفوا الناسَ مِن دَهياءَ مُظلِمَةٍ ... إِذا بَدا الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذو الذَّنَبِ
وَصَيَّروا الأَبرُجَ العُليا مُرَتَّبَةً ... ما كانَ مُنقَلِباً أَو غَيرَ مُنقَلِبِ
يَقضونَ بِالأَمرِ عَنها وَهيَ غافِلَةٌ ... ما دارَ في فُلُكٍ مِنها وَفي قُطُبِ
لَو بَيَّنَت قَطُّ أَمراً قَبلَ مَوقِعِهِ ... لَم تُخفِ ما حَلَّ بِالأَوثانِ وَالصُّلُبِ
فَتحُ الفُتوحِ تَعالى أَن يُحيطَ بِهِ ... نَظمٌ مِنَ الشِّعرِ أَو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ
فَتحٌ تَفَتَّحُ أَبوابُ السَّماءِ لَهُ ... وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ
يا يَومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّةَ انصَرَفَت ... مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ
أَبقَيتَ جَدَّ بَني الإِسلامِ في صَعَدٍ ... وَالمُشرِكينَ وَدارَ الشِّركِ في صَبَبِ
أُمٌّ لَهُم لَو رَجَوا أَن تُفتَدى جَعَلوا ... فِداءَها كُلَّ أُمٍّ مِنهُمُ وَأَبِ
وَبَرزَةِ الوَجهِ قَد أَعيَت رِياضَتُها ... كِسرى وَصَدَّت صُدوداً عَن أَبي كَرِبِ
بِكرٌ فَما افتَرَعَتها كَفُّ حادِثَةٍ ... وَلا تَرَقَّت إِلَيها هِمَّةُ النُّوَبِ
مِن عَهدِ إِسكَندَرٍ أَو قَبلَ ذَلِكَ قَد ... شابَت نَواصي اللَيالي وَهيَ لَم تَشِبِ
حَتّى إِذا مَخَّضَ اللَّهُ السِّنينَ لَها ... مَخضَ البَخيلَةِ كانَت زُبدَةَ الحِقَبِ
أَتَتهُمُ الكُربَةُ السَّوداءُ سادِرَةً ... مِنها وَكانَ اسمُها فَرّاجَةَ الكُرَبِ
جَرى لَها الفَأَلُ بَرحاً يَومَ أَنقَرَةٍ ... إِذ غودِرَت وَحشَةَ الساحاتِ وَالرُّحَبِ
لَمّا رَأَت أُختَها بِالأَمسِ قَد خَرِبَت ... كانَ الخَرابُ لَها أَعدى مِنَ الجَرَبِ
كَم بَينَ حيطانِها مِن فارِسٍ بَطَلٍ ... قاني الذَوائِبِ مِن آني دَمٍ سَرَبِ
بِسُنَّةِ السَّيفِ وَالخَطِّيِّ مِن دَمِهِ ... لا سُنَّةِ الدينِ وَالإِسلامِ مُختَضَبِ
لَقَد تَرَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ بِها ... لِلنارِ يَوماً ذَليلَ الصَّخرِ وَالخَشَبِ
غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَّيلِ وَهوَ ضُحىً ... يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حَتّى كَأَنَّ جَلابيبَ الدُّجى رَغِبَت ... عَن لَونِها وَكَأَنَّ الشَّمسَ لَم تَغِبِ
ضَوءٌ مِنَ النارِ وَالظَّلماءُ عاكِفَةٌ ... وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ
فَالشَّمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ... وَالشَّمسُ واجِبَةٌ مِن ذا وَلَم تَجِبِ

(1) التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، 32-49.

تَصَرَّحَ الدَّهرُ تَصريحَ الغَمامِ لَها ... عَن يَومِ هَيجاءَ مِنها طاهِرٍ جُنُبِ
لَم تَطلُعِ الشَّمسُ فيهِ يَومَ ذاكَ عَلى ... بانٍ بِأَهلٍ وَلَم تَغرُب عَلى عَزَبِ
ما رَبعُ مَيَّةَ مَعموراً يُطيفُ بِهِ ... غَيلانُ أَبهى رُبىً مِن رَبعِها الخَرِبِ
وَلا الخُدودُ وَقَد أُدمينَ مِن خَجَلٍ ... أَشهى إِلى ناظِري مِن خَدِّها التَّرِبِ
سَماجَةً غَنِيَت مِنّا العُيونُ بِها ... عَن كُلِّ حُسنٍ بَدا أَو مَنظَرٍ عَجَبِ
وَحُسنُ مُنقَلَبٍ تَبقى عَواقِبُهُ ... جاءَت بَشاشَتُهُ مِن سوءِ مُنقَلَبِ
لَو يَعلَمُ الكُفرُ كَم مِن أَعصُرٍ كَمَنَت ... لَهُ العَواقِبُ بَينَ السُّمرِ وَالقُضُبِ
تَدبيرُ مُعتَصِمٍ بِاللَهِ مُنتَقِمٍ ... لِلَّهِ مُرتَقِبٍ في اللَهِ مُرتَغِبِ
وَمُطعَمِ النَصرِ لَم تَكهَم أَسِنَّتُهُ ... يَوماً وَلا حُجِبَت عَن رَوحِ مُحتَجِبِ
لَم يَغزُ قَوماً وَلَم يَنهَض إِلى بَلَدٍ ... إِلاّ تَقَدَّمَهُ جَيشٌ مِنَ الرُعَبِ
لَو لَم يَقُد جَحفَلاً يَومَ الوَغى لَغَدا ... مِن نَفسِهِ وَحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ
رَمى بِكَ اللَّهُ بُرجَيها فَهَدَّمَها ... وَلَو رَمى بِكَ غَيرُ اللَهَّ لَم يُصِبِ
مِن بَعدِ ما أَشَّبوها واثِقينَ بِها ... وَاللَّهُ مِفتاحُ بابِ المَعقِلِ الأَشِبِ
وَقالَ ذو أَمرِهِم لا مَرتَعٌ صَدَدٌ ... لِلسارِحينَ وَلَيسَ الوِردُ مِن كَثَبِ
أَمانِياً سَلَبَتهُم نُجحَ هاجِسِها ... ظُبى السُيوفِ وَأَطرافُ القَنا السُلُبِ
إِنَّ الحِمامَينِ مِن بيضٍ وَمِن سُمُرٍ ... دَلوا الحَياتَينِ مِن ماءٍ وَمِن عُشُبِ
لَبَّيتَ صَوتاً زِبَطرِيّاً هَرَقتَ لَهُ ... كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
عَداكَ حَرُّ الثُغورِ المُستَضامَةِ عَن ... بَردِ الثُغورِ وَعَن سَلسالِها الحَصِبِ
أَجَبتَهُ مُعلِناً بِالسَيفِ مُنصَلِتاً ... وَلَو أَجَبتَ بِغَيرِ السَيفِ لَم تُجِبِ
حَتّى تَرَكتَ عَمودَ الشِركِ مُنعَفِراً ... وَلَم تُعَرِّج عَلى الأَوتادِ وَالطُنُبِ
لَمّا رَأى الحَربَ رَأيَ العَينِ توفِلِسٌ ... وَالحَربُ مُشتَقَّةُ المَعنى مِنَ الحَرَبِ
غَدا يُصَرِّفُ بِالأَموالِ جِريَتَها ... فَعَزَّهُ البَحرُ ذو التَيّارِ وَالحَدَبِ
هَيهاتَ زُعزِعَتِ الأَرضُ الوَقورُ بِهِ ... عَن غَزوِ مُحتَسِبٍ لا غَزوِ مُكتَسِبِ
لَم يُنفِقِ الذَهَبَ المُربي بِكَثرَتِهِ ... عَلى الحَصى وَبِهِ فَقرٌ إِلى الذَهَبِ
إِنَّ الأُسودَ أُسودَ الغيلِ هِمَّتُها ... يَومَ الكَريهَةِ في المَسلوبِ لا السَلَبِ
وَلّى وَقَد أَلجَمَ الخَطِّيُّ مَنطِقَهُ ... بِسَكتَةٍ تَحتَها الأَحشاءُ في صَخَبِ
أَحذى قَرابينُهُ صَرفَ الرَدى وَمَضى ... يَحتَثُّ أَنجى مَطاياهُ مِنَ الهَرَبِ
مُوَكِّلاً بِيَفاعِ الأَرضِ يُشرِفُهُ ... مِن خِفَّةِ الخَوفِ لا مِن خِفَّةِ الطَرَبِ
إِن يَعدُ مِن حَرِّها عَدوَ الظَليمِ فَقَد ... أَوسَعتَ جاحِمَها مِن كَثرَةِ الحَطَبِ
تِسعونَ أَلفاً كَآسادِ الشَرى نَضِجَت ... جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ
يا رُبَّ حَوباءَ حينَ اجتُثَّ دابِرُهُم ... طابَت وَلَو ضُمِّخَت بِالمِسكِ لَم تَطِبِ
وَمُغضَبٍ رَجَعَت بيضُ السُيوفِ بِهِ ... حَيَّ الرِّضا مِن رَداهُم مَيِّتَ الغَضَبِ

وَالحَربُ قائِمَةٌ في مَأزِقٍ لَجِجٍ تَجثو القِيامُ بِهِ صُغراً عَلى الرُّكَبِ
كَم نيلَ تَحتَ سَناها مِن سَنا قَمَرٍ وَتَحتَ عارِضِها مِن عارِضٍ شَنِبِ
كَم كانَ في قَطعِ أَسبابِ الرِّقابِ بِها إِلى المُخَدَّرَةِ العَذراءِ مِن سَبَبِ
كَم أَحرَزَت قُضُبُ الهِندِيِّ مُصلَتَةً تَهتَزُّ مِن قُضُبٍ تَهتَزُّ في كُثُبِ
بيضٌ إِذا انتُضِيَت مِن حُجبِها رَجَعَت أَحَقَّ بِالبيضِ أَتراباً مِنَ الحُجُبِ
خَليفَةَ اللَّهِ جازى اللهُ سَعيَكَ عَن جُرثومَةِ الدِّينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ
بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها تُنالُ إِلاّ عَلى جِسرٍ مِنَ التَّعَبِ
إِن كانَ بَينَ صُروفِ الدَّهرِ مِن رَحِمٍ مَوصولَةٍ أَو ذِمامٍ غَيرِ مُنقَضِبِ
فَبَينَ أَيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِها وَبَينَ أَيّامِ بَدرٍ أَقرَبُ النَّسَبِ
أَبقَت بَني الأَصفَرِ المِراضِ كَاسِمِهِمُ صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ